حرية الرأي وأثرها في النهوض والشهود من منظور القرآن والسنة

د. رمضان خميس الغريب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن المشارك في جامعة قطر
د خليصة مزوز
الأستاذ المساعد للحديث وعلومه

مقدمة

أحمد الله رب العالمين، وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة وهداية للعالمين، محمد – صلى الله عليه وسلم– وآله وصحبه والتابعين، اللهم إنا نبرأ من حولنا وطولنا وقواتنا، ونلوذ بحولك وطولك وقوتك، فلا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا قبضتها يا أرحم الراحمين

أما بعد فإن الحرية من أعظم ما امتن الله (تعالى) به على عباده، وهي قيمة كبرى من قيم المشروع النهضوي، وأساس من أسس الشهود الحضاري للإنسانية عامة والأمة الإسلامية خاصة، وهي مقصد من مقاصد التشريع تنبه إليه علماء المقاصد الشرعية لخطره وعظيم أثره، وتميز فيه المنهاج القرآني تنبيهاً وعرضا، وتناولا ورصدا، حتى في أدق المسارات وأخطر القضايا قضايا التوحيد والإيمان، وعلاقة الإنسان بالرحمن، وتنوعت عناية القرآن والسنة بها، من حيث طرح القضايا، وتلوين العبارة، وتنويع المفردات، وتعديد المجالات.

وأمتنا اليوم – في تلك الدورة الحضارية التي تعيشها–في أمس مراحلها إلى ضبط المفاهيم، وبيان الحدود والعلاقة بين المقدمات والنتائج، والمصطلحات وضوابطها في ضوء مرجعيتنا ومصادرنا، حتى يكون الوعي أساسا للسعي والتوصيف خطوة إلى التوظيف، والإدراك مقدمة الحراك، والفهم معينا على التسخير

وأتصور مبدئيا أن يكون هيكل البحث على النحو الآتي:

المقدمة وفيها:

أولا أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

تبرز أهمية البحث المطروح في الآتي

1. العلاقة الوثقى بين حرية الرأي والنهوض والشهود.
2. عناية الوحي قرآنا وسنة بقضية حرية الرأي وغرسها في الشعوب.
3. الحاجة الماسة في واقعنا المعيش إلى تنفس الناس للحرية
4. غياب الوعي بأن حرية الشعوب لا تتناقض مع استقرار الدول

ثانيا مشكلة البحث:

بيان التلازمية بين حرية الرأي والنهوض والشهود وجودا وعدما.

ثالثا أسئلة البحث:

هل هناك علاقة بين الحرية وغرسها في الشعوب وإتاحتها وبين استقرار الدول ونهضتها وشهودها الحضاري؟

رابعا أهداف الدراسة:

1- بيان العلاقة الوثقى بين حرية الرأي والنهوض

2- إبراز عناية الوحي قرآنا وسنة بقضية الحرية وغرسها في الشعوب.

3- تلبية الحاجة الماسة في واقعنا المعيش إلى تنفس الناس الحرية.

4- زيادة الوعي بأن حرية الشعوب لا تتناقض مع استقرار الدول

خامساً: حدود الدراسة:

تقتصر الدراسة على حصر الآيات التي تتناول قضية الحرية وعلاقتها بالنهضة وأثر حرية الفرد في قيام نهضة على أسس سليمة قوية، وتمضي على المنهج الموضوعي الوسيط الذي يسعى إلى حصر الآيات الجامعة للصورة القرآنية الشاملة عن قضية: (حرية الرأي وأثرها في النهوض والشهود في منظور القرآن والسنة) ، والاستعانة على فهم ذلك بالتفاسير المعتمدة، وكتب الحديث الشريف وشروحه والعلوم الإنسانية المتاحة، وما أفرزه علم الاجتماع الإسلامي حسب الطاقة البشرية.

سادساً: منهج البحث وأداته:

يستخدم الباحث المنهج الوصفي والاستقرائي والاستنباطي، حسب طبيعة التناول، وأداته جمع الآيات ذات الصلة بالموضوع، وتحليلها، واستنباط الخصائص، والسمات، والأسباب، والشروط اعتمادا على تلك الركيزة الإنسانية في قيام الحضارات وانتصارها،أو عدمها واندثارها، إفادة مما كتبه علماء التفسير والاجتماع، وما يدعم ذلك من ومضات السنة النبوية المطهرة، وما يخدم هدف البحث من الدراسات الإنسانية، دون الإفراط في الشروح؛ حرصا على عدم خروج البحث عن مساره.

وحرَصت على جمع الآيات المتعلقة بالموضوع ، كما حرصت على أن تكون العناصر المعنونة من صميم الآيات القرآنية؛ جريا على المعتمد من المناهج في هذا اللون من ألوان التفسير الموضوعي، أما في الشرح والاستنباط، فأَفيد من كتب التفسير في كل المدارس من مأثور ورأي، فأمر على مدارس متعددة وألوان متباينة، زمانا، ومكانا، واتجاها، ومنهاجا، وفكرا، ومن السنة، وهي الشارح الُمبين والُمَبِّين لآيات القرآن، وما قدمه الجهد البشري من دراسات إنسانية أو عربية في هذا الصدد، حسب الطاقة والوسع، وحسب طبيعة الدراسة.

هيكل البحث:

وشمل البحث مقدمة ومبحثين وخاتمة

المبحث الأول: أثر حرية الرأي في النهوض والشهود، في القرآن والسنة.

المبحث الثاني: المنهجية السوية في بيان حرية الرأي والعلاقة بينها وبين الشهود الحضاري للأمة المسلمة.

الخاتمة وفيها أهم النتائج والتوصيات

فهرس المراجع والمصادر

المبحث الأول: منهجية الوحي في بيان حرية الرأي وغرسها في نفس الإنسان، والعلاقة بينها وبين الشهود الحضاري للأمة المسلمة.

أعلى الإسلام قرآنا وسنة من قيمة الحرية، وأبان عن منزلتها، حتى جعلها مقابل الحياة؛ لأن الحياة الحقيقية لا تكون إلا مع الحرية الحقيقية؛ فجعل كفارة القتل الخطأ تحرير رقبة، وفيه من الإشارة إلى قيمة الحرية ما فيه، كما قال الإمام النسفي – رحمه الله– وهو يفسر قول الله (سبحانه وتعالى) : ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَئاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ النساء : 92 . ..معللا: لماذا كانت كفارة القتل الخطأ تحرير إنسان من رق العبودية: (لما أخرج نفساً مؤمنة من جملة الأحياء لزمه أن يدخل نفساً مثلها في جملة الأحرار؛ لأن إطلاقها من قيد الرق كإحيائها، من قبل أن الرقيق ملحق بالأموات، إذ الرق أثر من آثار الكفر، والكفر موت حكماً. ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 122] [1]

وهذا من بدائع الإمام النسفي في لَحْظِ تلك اللطيفة المقاصدية السننية في الآية الكريمة.

ويلمح صاحب التحرير والتنوير في الآية ملمحا بديعا، وهو أن بالقتل حدث تفويت لعبودية عبد لله، سواء ممن مات أو ممن يرجى من نسله، وفي تحرير الرقبة عوض عن شيء من ذلك، فقد (جعلت كفارة قتل الخطأ أمرين: أحدهما تحرير رقبة مؤمنة، وقد جعل هذا التحرير بدلا من تعطيل حق الله في ذات القتيل، فإن القتيل عبد من عباد الله ويرجى من نسله من يقوم بعبادة الله وطاعة دينه، فلم يخل القاتل من أن يكون فوت بقتله هذا الوصف، وقد نبهت الشريعة بهذا على أن الحرية حياة، وأن العبودية موت؛ فمن تسبب في موت نفس حية كان عليه السعي في إحياء نفس كالميتة وهي المستعبدة.)[2]

ولهذه الحقائق الرائقة جعل الإسلام مصرفا من مصارف الزكاة الثمانية: تحرير الأرقاء، أي: إحياؤهم بالحرية من موات الاسترقاق.. كما جعل بقية المصارف المالية تحريرا للفقراء من رق الفقر والعوز و الحاجة.. فكأنما كل مصارف الزكاة موجهة للحرية والتحرير!..

فكل قيد على الإنسان، كل الإنسان، سواء كان مسلما أو كافرا، حد من حريته وتقليل من طلاقة رغبته،وكما أن العبودية رق حقيق فالفقر والعوز رق قاهر،ومذلة مقعدة، وحاجة تحول بين الإنسان وإرادته، فلا يفكر تفكيرا سويا، ولا يعمل عملا منطقيا، وكما قال الشافعي : لا تشاور من ليس في بيته دقيق؛ لأنه مدله العقل.[3]

بل إن المجتمع كله في عين الشارع حين يشرع مثل هذه العقوبة، (فالقبض الذي حدث من قتل نفس مؤمنة يقابلها بسط في حرية واحد كان محكوماً في حركته، فنقول له: انطلق في حركتك لتخدم كل مجتمعك. ويريد الحق بذلك أن يفتح مصرفاً لحرية الأرقاء ضمن المصارف الكثيرة التي جعلها الإسلام لذلك.)[1]

---

1 - تفسير النسفي: (1 / 233).

2 – التحرير والتنوير: (5 / 159).

3 – ميزان الاعتدال: 2/ 5. منسوبة للإمام الشافعي

وثبت في السنة النبوية الشريفة عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيُّمَا رَجُلٍ أَعْتَقَ امْرَأً مُسْلِمًا، اسْتَنْقَذَ اللَّهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنْهُ مِنَ النَّارِ» قَالَ سَعِيدُ بْنُ مَرْجَانَةَ: «فَانْطَلَقْتُ بِهِ إِلَى عَلِيِّ بْنِ حُسَيْنٍ، فَعَمَدَ عَلِيُّ بْنُ حُسَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إِلَى عَبْدٍ لَهُ قَدْ أَعْطَاهُ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ عَشَرَةَ آلاَفِ دِرْهَمٍ أَوْ أَلْفَ دِينَارٍ، فَأَعْتَقَهُ»(2).

وفي هذا الحديث من الفقه أن الأعمال تجانسها الأجور، وأن الله عز وجل لما ضرب الرزق على العبد، وجعله في ذلك عبدا آخر، كان من فطنة المولى أن ينظر إلى أنه هو ملك لله عز وجل، فيرى أن تخليصه عبده من رق نفسه بعرض لالتماس عتق ربه نفسه من عذابه ، فوعد النبي - **صلى الله عليه وسلم** - ذلك على العتق، وإن الله تعالى يعتق بكل عضو من العبد عضوًا من المعتق(3).

ومن هنا جعل الإسلام الحرية مقصدا من مقاصده، وغاية من غاياته، فيحرر الإنسان من كل ما سوى الله (تعالى)، وعبوديته لله هي الحرية الحقيقية، كما جعل الإسلام الحفاظ على النفس مقصدا من مقاصده؛ لأن بها قوام الدين، وبقاء الإسلام.

لقد ربى القرآن الكريم أتباعه على الحرية، وبنى في نفوسهم الرغبة في أن يكونوا أحرارا أباة، لا يخضعون لظلم، ولا يأبهون بالطغاة، وجعل ذلك منهجية ثابتة في بناء نفوسهم وعقولهم، وسلك في سبيل ذلك عددا من المسالك تعد منهجيات ثابتة، ومعالم أساسية في بناء الشخصية المسلمة السوية،ومن تلك المنهجيات:

1. بيان قيمة الحرية والإشادة بها

فقد تكرر في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة الدعوة إلى الحرية، وبيان قيمتها، وأنها تعدل الحياة، ولم يُكره الإنسان في شيء حتى في إيمانه بربه، بل جعل الاختيار الصادق أساس الإيمان الصادق، وعد الاختيار الظاهر مواربة أو موائمة لونا من النفاق الذي يكون مصير أصحابه الدرك الأسفل من النار، ولا يعد صاحبه شيئا في ميزان المجتمع المسلم، الذي يقوم على الصدق في الاختيار ، ولو في اختيار ربه ومعبوده،والوضوح في الرأي، والحرية المطلقة ولو في أخطر القضايا وأعظم المواقف.

لقد حمى الإسلام المسلم وغيره من الإكراه والاضطهاد، وسماه (فتنة)، كما حماه من سيطرة الرياسة والاستبداد، وتلك من مراعاة الإسلام للفطرة السوية، والصبغة التي صبغ بها الإنسان، كما يقول صاحب المنار: (هذه المزية (الحرية) من مزايا الإسلام هي نتيجة المزايا التي تجعل الإسلام دين الفطرة، فأما منع الإكراه فيه وعليه، فالأصل فيه قوله (تعالى) لرسوله **(صلى الله عليه وسلم)** بمكة : ﴿**ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين وما**

=

1 – تفسير الشعراوي: (/ 373).

2 – الجامع الصحيح،كتاب العتق،باب في العتق وفضله،144/3،رقم:2517. البخاري.

3 – الإفصاح عن معاني الصحاح،258/6. ابن هبيرة.

كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾ (10 : 99 - 101).

علَّم الله (تعالى) رسوله بهذه الآيات أن من سننه في البشر أن تختلف عقولهم وأفكارهم في فهم الدين ، وتتفاوت أنظارهم في الآيات الدالة عليه فيؤمن بعض ويكفر بعض ...وأما منع الفتنة، وهي اضطهاد الناس لأجل دينهم حتى يتركوه، فهو السبب الأول لشرعية القتال في الإسلام ...

وأما منع رياسة السيطرة الدينية كالمعهودة عند النصارى ففيها آيات مبينة في القرآن، وهي معلومة بالضرورة من سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) وخلفائه الراشدين)[1]

وتكفي مطالعة سريعة لموارد الحديث عن الحرية ومرادفاتها ومقابلاتها في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة؛ لتتضح لنا قيمتها، حتى عد القرآن الإنسان الحر ملكا من الملوك،في قوله (تعالى) على لسان موسى –عليه السلام– في مخاطبته لبني إسرائيل وهو يعدد عليهم نعم الله (تعالى) : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ المائدة: (20)

(فمن يفهم العربية حق الفهم يجزم بأنه ليس المراد أنه جعل أولئك المخاطبين رؤساء للأمم والشعوب يسوسونها ويحكمون بينها، ولا أنه جعل بعضهم ملوكا ؛لأنه قال : (وجعلكم ملوكا) ولم يقل: وجعل فيكم ملوكا، كما قال : (جعل فيكم أنبياء) فظاهر هذه العبارة أنهم كلهم صاروا ملوكا، وإن أريد بـ "كل " المجموع لا الجميع ; أي: إن معظم رجال الشعب صاروا ملوكا، بعد أن كانوا كلهم عبيدا للقبط، بل معنى الملك هنا الحر، المالك لأمر نفسه، وتدبير أمر أهله، فهو تعظيم لنعمة الحرية والاستقلال بعد ذلك الرق والاستعباد، يدل على ذلك التفسير المأثور; ففي حديث أبي سعيد الخدري مرفوعا عند ابن أبي حاتم : " كانت بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم ودابة وامرأة كتب ملكا " ، وفي حديث زيد بن أسلم : " من كان له بيت وخادم فهو ملك " رواه أبو داود في مراسيله ، تفسيرا للآية بلفظ " زوجة ومسكن وخادم " .... والمعنى الجامع لهذه الأقوال: أن المراد بالملك هنا: الاستقلال الذاتي، والتمتع بنحو ما يتمتع به الملوك من الراحة والحرية في التصرف وسياسة البيوت، وهو مجاز تستعمله العرب إلى اليوم في جميع ما عرفنا من بلادهم، يقولون لمن كان مهنئا في معيشته ، مالكا لمسكنه ، مخدوما مع أهله ، فلان ملك ، أو ملك زمانه; أي يعيش عيشة الملوك)[2]

وفي تعليل صاحب المنار النهيَ القرآني للمؤمنين عن سب الذين يدعون من دون الله فيسبون الله عدوا بغير علم في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، الأنعام: (108). بيان لطيف لقيمة الحرية، وفك أسار الإنسان من كل قيد يحول بينه وبين اختياره الحر، وإرادته المطلقة، فيرى صاحب المنار أن (من مقتضى سننه (تعالى) في خلق البشر متفاوتي الاستعداد، مختلفي الفهم والاجتهاد، أن لا يتفقوا على دين، ومن مقتضى هدايته في بعثة الرسل أن يكونوا مبلغين لا مسيطرين وهادين

1 - تفسير المنار: (11 / 209).

2 - تفسير المنار: (6 / 267).

لا جبارين، فعليهم أن لا يضيقوا ذرعا بحرية الناس في اعتقادهم، فإن خالقهم هو الذي منحهم هذه الحرية، ولم يجبرهم على الإيمان إجبارا وهو قادر على ذلك)[1]

وجاءت السنة النبوية الشريفة تأكيدا لما ذكرة القرآن الكريم على أهمية هذه القيمة الحضارية وضروريتها في حياة الأفراد والجماعات ،فقد سمح النبي صلى الله عليه وسلم لكل من شاء أن يقول ماشاء،فعن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سَمِعَ خُصُومَةً بِبَابِ حُجْرَتِهِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّهُ يَأْتِينِي الخَصْمُ، فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغَ مِنْ بَعْضٍ، فَأَحْسِبُ أَنَّهُ صَدَقَ، فَأَقْضِيَ لَهُ بِذَلِكَ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ، فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ، فَلْيَأْخُذْهَا أَوْ فَلْيَتْرُكْهَا»[2]

والحديث أصل في بابه، بين النبي (صلى الله عليه وسلم) من خلاله الحق في حرية التعبير والمطالبة بالحقوق شرط تحري الصدق وعدم التعدي على حق الغير.

وعن رَافِعُ بْنُ خَدِيجٍ، قَالَ: قَدِمَ نَبِيُّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ، وَهُمْ يأبرُونَ النَّخْلَ، يَقُولُونَ يُلَقِّحُونَ النَّخْلَ، فَقَالَ: «مَا تَصْنَعُونَ؟» قَالُوا: كُنَّا نَصْنَعُهُ، قَالَ: «لَعَلَّكُمْ لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا كَانَ خَيْرًا» فَتَرَكُوهُ، فَنَفَضَتْ أَوْ فَنَقَصَتْ، قَالَ فَذَكَرُوا ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ فَخُذُوا بِهِ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيِي، فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ» قَالَ عِكْرِمَةُ: أَوْ نَحْوَ هَذَا. قَالَ الْمَعْقِرِيُّ: فَنَفَضَتْ وَلَمْ يَشُكَّ. [3]

كان أهل المدينة يؤبرون النخل على العادة المستمرة في الجاهلية فعرض النبي (صلى الله عليه وسلم) رأيه حول هذا العمل وأنه مزيد تعب فيما لا ينفع فتركوا التلقيح فنقصت ثمار النخل فذكروا ذلك لرسول الله فبين لهم أن رأيه هذا قاله بحسب الظن[4].

فالنبي (صلى الله عليه وسلم) تحدث عن قضية تأبير النخل برأيه الخاص ،وأن رأيه عرضة للخطأ والصواب ،وأن للصحابة الحرية في البحث عن أمور دنياهم وعلاجها على نحو علمهم وتجاربهم.

من هنا ندرك بوضوح لم عني الفقهاء بالحرية في كتاباتهم، وكيف دار عليها كثير من أبواب الفقه،في البيع والشراء، والزواج والطلاق، وغير ذلك من أبواب الفقه، وتكفي مطالعة سريعة لأبواب الفقه على تنوعها من عبادات، ومعاملات، ليرى الناظر مدار كثير منها إن لم يكن جميعها على الحرية، وطلاقة الاختيار.

2. الدعوة إلى إعمال العقل وإجالة النظر

1 – تفسير المنار: (7 / 553).

2 – البخاري:الصحيح،كتاب المظالم،باب إثم من خاصم في باطل وهو يعلمه،131/3،رقم:2458.

3 – الجامع الصحيح،كتاب المظالم،باب إثم من خاصم في باطل وهو يعلمه،131/3،رقم:2458. البخاري.

4 – مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح،243/1. أبو الحسن المباركفوري.

ومن أساليب القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة في غرس الحرية في نفوس المؤمنين، بل الناس أجمعين، دعوته للنظر والتفكر، والتأمل والتدبر، والوصول من الرؤية إلى الفكرة، ومن الوعي إلى السعي، ومن العلم إلى العمل، ومن التوصيف إلى التوظيف، ورغبته في أن يتعلم الإنسان التعرف على القضية، أي قضية، عبر الرصد والملاحظة،في الآثار والأغيار، حتى في قضايا الإيمان بالله ورسوله وكتابه، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (46)، سبأ: 46.

تكرر في القرآن الكريم الدعوة إلى إعمال العقل، وإجالة النظر، ونعى القرآن الكريم على المقلدين الذين يتبعون آباءهم، كما يتبع الحيوان صوت الحادي والزاجر، لا يفرق بين هذا وذاك إلا بالإشارة، وتلونت دعوة القرآن إلى ذلك وتعددت، حتى ورد الأمر بالسير والنظر، والتفكر والتدبر، والسياحة مرات عديدة لافتة للنظر، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾، فاطر: 44، 45.

وقال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، غافر:21، 22.

وقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾، غافر:82-85.

وفي الآيات الكريمة دعوة إلى السير في الأرض، والنظر في عاقبة الذين كانوا من قبلهم، وما كانوا فيه من قوة وحضارة، وآثار في الأرض، وعندما جاءتهم الرسل بالبراهين الساطعة، والبينات القاطعة استغنوا بعلمهم وحضارتهم، ونكصوا على أعقابهم، قاصرين العلم على المادة تاركين علم الوحي، ونور الهداية، جاهلين أن الحضارة لا تكون في المادة فحسب، فالاعتماد عليها وحدها يجعلها حضارة شوهاء ترف — إن رفت- بجناح واحد، عرجاء تمشي_إن مشت _ على قدم واحدة، وإيراد لفظ السنة هنا إشارة إلى اللاحقين أن هذا ينطبق على كل من سار سيرهم، ونسج على منوالهم، فسنن الله حاكمة، ونواميسه قاهرة لا تتخلف ولا تتبدل.

وفي الآيات (مشروعية السير في البلاد للعظة والاعتبار تقوية للإيمان، وأن القوى المادية لا تغني عن أصحابها شيئا إذا أرادهم الله بسوء، و بيان سنة بشرية وهي أن الماديين يغترون بمعارفهم المادية ليستغنوا بها عن العلوم الروحية في نظرهم إلا أنها لا تغني عنهم شيئاً عند حلول العذاب بهم في الدنيا وفي الآخرة.)[1]

أقول: ليس لتقوية الإيمان فحسب، وإن كان غرضا مطلوبا، وهدفا مرغوبا؛ بل لإتاحة الحرية لهؤلاء أن ينظروا في الكون وما فيه، وأسراره وخوافيه والحضارات السابقة، وأسباب عمرانها وخرابها، وعلل بقائها وفنائها، فيروا دون مانع، ويتعرفوا دون حاجز، فتكون قناعتهم داخلية لا إملائية، ورؤيتهم علمية لا حلمية.

إن صاحب البضاعة الثمينة النفيسة لا يضره أن يتعرف الناس عليها، بل يحرص على أن يخبروها، ويعركوها، ويسبروا أغوارها؛ فليس لديه ما يخاف منه، أو ما يعاب عليه؛ لذا تراه هو الذي يبادر بتقليب بضاعته، وعرضها على راغبيها؛ ثقة منه فيما لديه؛ واطمئنانا إلى سلامة ما بين يديه.

وفي السياق نفسه يأتي قوله (تعالى): ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾، محمد:10.

وقوله (تعالى): ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (137) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾، آل عمران: 137، 138.

وربط القرآن الكريم في أمره بالنظر والتفكر بين التأمل والتفكير، وبين النهضة والبناء، والحضارة الحقيقية، سواء في الحديث عن أسباب بقائها أو أسباب فنائها، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(9) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾، الروم: 9، 10.

وفي حديث القرآن عن العلم والعلماء لم يقصرهم على علماء الدين وفقهاء الشريعة، وهم من هم: فضلا وقدرا، بل ضم معهم علماء الطبيعة والزراعة، والجبال،والحيوان، والاجتماع، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾، فاطر: 27، 28.

وقد ثبت في السنة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتفكر في آيات الله ومخلوقاته ويدعو إلى ذلك، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: بِتُّ عِنْدَ خَالَتِي مَيْمُونَةَ، فَتَحَدَّثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ أَهْلِهِ سَاعَةً، ثُمَّ رَقَدَ، فَلَمَّا كَانَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، قَعَدَ فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ﴾، ثُمَّ «قَامَ فَتَوَضَّأَ وَاسْتَنَّ فَصَلَّى إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً»، ثُمَّ أَذَّنَ بِلاَلٌ، «فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ خَرَجَ فَصَلَّى الصُّبْحَ»[2]

---

1 – أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير: (7 / 414).

2 –:الجامع الصحيح،كتاب التفسير،باب قوله إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار،41/6،رقم:4569. الإمام البخاري.

ومن هذا الباب أيضا ما ورد من النهي عن أن يكون الإنسان إمعة إن ضل الناس ضل وإن اهتدوا اهتدى كما ثبت في حديث حُذَيْفَةَ رضي الله عنه أن رَسُول اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: لاَ تَكُونُوا إِمَّعَةً، تَقُولُونَ: إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا، وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ، إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا، وَإِنْ أَسَاءُوا فَلاَ تَظْلِمُوا.[1]

قال أبو عبيد: لم يكره من هذا الكينونة مع الجماعة، ولكن أصل الإمعة: هو الرجل الذى لا رأى له ولا عزم، فهو يتابع كل أحد على رأيه، ولا يثبت على شيء، وكذلك الرجل الإمرة: هو الذى يوافق كل إنسان على ما يريد من أمره كله[2].

وفي بيان علاقة الحرية والاستقلال بالحضارة والتقدم يقول صاحب المنار: إن (قاعدتي الحرية والاستقلال، هما الأساس الذي قام عليه بناء الإسلام، وإن علماء الشعوب الشمالية التي سادت في هذا العصر علينا، يعترفون بأنهم أخذوا هاتين المزيتين ـ استقلال الفكر والإرادة ـ عنا وأقاموا بناء مدنيتهم عليهما)[3]

3. الحوار وتبنيه في جميع المجالات والقضايا وعلاقته بالحرية

ومن الأساليب التي اتبعها القرآن في غرس قيمة الحرية في نفوس أتباعه خاصة، والناس عامة: الحوار، فنجد غنى القرآن بالحوار، وتنوع أساليبه فيه، لقد حاور الله (تعالى) أهل الكتاب، من اليهود والنصارى، وحاور المشركين ودعاهم إلى التفكر والنظر، وحاور إبليس،كما حاور الله (تعالى) الملائكة في قضية شهيرة حفلت بها ثاني سورة من حيث ترتيب الهداية، وهي سورة البقرة، وهي قضية خلق آدم، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، البقرة: 30-33.

فقد سمح الله (تعالى) لهم بالحوار في قضية خطيرة، وهي قضية خلق يكون في الأرض، وسمع منهم حجتهم، ودلل لهم على خيرية أن يكون في الأرض خليفة، وبرهن لهم بتعليم آدم الأسماءكلها، وكان سبحانه غنيا عن ضرب المثال، وبيان الفائدة، فهو الملك لا معقب لحكمه، ولا راد لأمره، ولا يقع في ملكه إلا ما يريد، غير أنه (جل جلاله) أراد أن يغرس في نفس السامعين للقرآن والتالين له قيمة الحوار، وما يتيحه من حرية هي أساس الخلافة والشهود، وإلا فكيف يكون الإنسان خليفة لله دون أن تكون لديه القدرة والحرية على بيان حجته، والتعبير عن رأيه، والصدع بما يقتنع به؟!

1 – الجامع للإمام الترمذي، أبواب البر والصلة،باب ماجاء في الإحسان والعفو، 432/3، رقم:2007. وقال حسن غريب.

2 – غريب الحديث، 60/5 ، أبو عبيده.

3 – تفسير المنار: (5 / 73، 74).

(فإن قيل: ما الفائدة في أن الله قال للملائكة: " إنِّي جَاعِلٌ في الأرض خليفةً " مع أنه منزّه عن الحاجة إلى المشُورة ؟ قيل لأمرين الأوّل : أنه – تعالى – علم أنهم إذا اطَّلعُوا على ذلك السّر أوردوا عليه ذلك السُّؤال ، فكانت المِصْلَحَة تقتضي إحاطتهم بذلك الجَوَاب ، فعرّفهم هذه الواقعة لكي يوردوا ذلك السُّؤال ، ويسمعوا ذلك الجواب .

والثاني : أنه – تعالى – علم عباده المشُورة)[1]

(وفي التصور الإسلامي إعلاء من شأن الإرادة في الإنسان فهي مناط العهد مع الله، وهي مناط التكليف والجزاء. . إن هذا الإنسان يملك الارتفاع على مقام الملائكة بحفظ عهده مع ربه عن طريق تحكيم إرادته، وعدم الخضوع لشهواته، والاستعلاء على الغواية التي توجه إليه. بينما يملك أن يشقي نفسه ويهبط من عليائه، بتغليب الشهوة على الإرادة، والغواية على الهداية، ونسيان العهد الذي يرفعه إلى مولاه. و في هذا مظهر من مظاهر التكريم لا شك فيه، يضاف إلى عناصر التكريم الأخرى. كما أن فيه تذكيراً دائماً بمفرق الطريق بين السعادة والشقاوة، والرفعة والهبوط، ومقام الإنسان المريد ودرك الحيوان المسوق!)[2].

وفي السنة النبوية نماذج كثيرة لحوار النبي (صلى الله عليه وسلم) للمسلمين ولغير المسلمين في شتى المجالات الدينية والدنيوية وفي هذا دليل على حرية إبداء الرأي والتواصل مع المخالفين ،ومن ذلك :

مارواه ابن أبي مليكة أَنَّ عَائِشَةَ، زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كَانَتْ لاَ تَسْمَعُ شَيْئًا لاَ تَعْرِفُهُ، إِلَّا رَاجَعَتْ فِيهِ حَتَّى تَعْرِفَهُ، وَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ» قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ أَوَلَيْسَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: 8] قَالَتْ: فَقَالَ: " إِنَّمَا ذَلِكِ العَرْضُ، وَلَكِنْ: مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ يَهْلِكْ"[3]

وقال ابن حجر معلقا على الحديث: "وَفِي الْحَدِيثِ مَا كَانَ عِنْدَ عَائِشَةَ مِنَ الْحِرْصِ عَلَى تَفَهُّمِ مَعَانِي الْحَدِيثِ وَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَكُنْ يَتَضَجَّرُ مِنَ الْمُرَاجَعَةِ فِي الْعِلْمِ وَفِيهِ جَوَازُ الْمُنَاظَرَةِ وَمُقَابَلَةُ السُّنَّةِ بِالْكِتَابِ وَتَفَاوُتُ النَّاسِ فِي الْحِسَابِ وَفِيهِ أَنَّ السُّؤَالَ عَنْ مِثْلِ هَذَا لَمْ يَدْخُلْ فِيمَا نُهِيَ الصَّحَابَةُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ".

–وعن أُمُّ مُبَشِّرٍأَنَّهَا سَمِعَتِ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ عِنْدَ حَفْصَةَ: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِنْ شَاءَ اللهُ مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَد الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا» قَالَتْ: بَلَى، يَا رَسُولَ اللهِ فَانْتَهَرَهَا، فَقَالَتْ حَفْصَةُ: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: 71] فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَدْ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: 72]»[4]

ووجه القاضي عياض قول حفصة قائلا: وقول حفصة: بلى، وانتهار النبى – عليه الصلاة والسلام – لها، وقولها: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ وقول النبى (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): " قد قال الله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ ": كله دليل على المناظرة

1 – اللباب في علوم الكتاب: (1 / 499).

2 – في ظلال القرآن لسيد قطب: (1 / 33).

3 – متفق عليه: البخاري: الصحيح،كتاب العلم ،باب من سمع شيئا فلم يفهمه فراجع فيه حتى يعرفه،32/1،رقم:103،مسلم: الصحيح، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إثبات الحساب،2204/4،رقم:2876.

4 – الجامع الصحيح ،كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم،باب من فضائل أصحاب الشجرة أهل بيعة الرضوان رضي الله عنهم، 1942/4، رقم:2496. للإمام مسلم.

فى العلم، وجواز الاعتراض والسؤال فيه لاستخراج الفائدة، وهو مقصد حفصة إن شاء الله، لا أنها قصدت رد مقال النبى – عليه الصلاة والسلام –»[1]

ولم يكتف (صلى الله عليه وسلم) بسماع آراء من يحاورهم،بل كان يحثهم على التعبير عن رغباتهم بما يعرضه عليهم من خيارات؛ فقد روي عن عروة أن مروان والمسور بن مخرمة أَخْبَرَاهُ أَنَّ النَّبِيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَامَ حِينَ جَاءَهُ وَفْدُ هَوَازِنَ، فَسَأَلُوهُ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَسَبْيَهُمْ، فَقَالَ: " إِنَّ مَعِي مَنْ تَرَوْنَ، وَأَحَبُّ الحَدِيثِ إِلَيَّ أَصْدَقُهُ، فَاخْتَارُوا إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ: إِمَّا المَالَ وَإِمَّا السَّبْيَ، وَقَدْ كُنْتُ اسْتَأْنَيْتُ بِهِمْ "، وَكَانَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) انْتَظَرَهُمْ بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً حِينَ قَفَلَ مِنَ الطَّائِفِ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَيْرُ رَادٍّ إِلَيْهِمْ إِلَّا إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، قَالُوا: فَإِنَّا نَخْتَارُ سَبْيَنَا، فَقَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي النَّاسِ، فَأَثْنَى عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ إِخْوَانَكُمْ قَدْ جَاءُونَا تَائِبِينَ، وَإِنِّي رَأَيْتُ أَنْ أَرُدَّ إِلَيْهِمْ سَبْيَهُمْ، فَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يُطَيِّبَ ذَلِكَ فَلْيَفْعَلْ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ عَلَى حَظِّهِ حَتَّى نُعْطِيَهُ إِيَّاهُ مِنْ أَوَّلِ مَا يُفِيءُ اللَّهُ عَلَيْنَا فَلْيَفْعَلْ»، فَقَالَ النَّاسُ: طَيَّبْنَا لَكَ ذَلِكَ، قَالَ: «إِنَّا لاَ نَدْرِي مَنْ أَذِنَ مِنْكُمْ مِمَّنْ لَمْ يَأْذَنْ، فَارْجِعُوا حَتَّى يَرْفَعَ إِلَيْنَا عُرَفَاؤُكُمْ أَمْرَكُمْ» فَرَجَعَ النَّاسُ، فَكَلَّمَهُمْ عُرَفَاؤُهُمْ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْبَرُوهُ: أَنَّهُمْ طَيَّبُوا وَأَذِنُوا، فَهَذَا الَّذِي بَلَغَنَا عَنْ سَبْيِ هَوَازِنَ[2].

قال ابن بطال شارحا الحديث: لم يجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم الخيار فى إمساك السبى أصلا، وإنما خيرهم فى أن يعوضهم من مغانم أخر، ولم يخيرهم فى أعيان السبى، لأنه قال لهم هذا بعد أن رد إليهم أهليهم، وإنما خيرهم فى إحدى الطائفتين لئلا يجحف بالمسلمين فى مغانمهم فيخليهم منه كله، ويخيبهم مما غنموه وتعبوا فيه. قال المهلب: وفى رفع النبى – عليه السلام – إملاك الناس عن الرقيق، ولم يجعل إلى تملك أعيانهم سبيلا دليل على أن للإمام أن يستعين على مصالح المسلمين بأخذ بعض ما فى أيدى الناس ما لم يجحف بهم، ويعد من لم تطب نفسه مما يأخذ منه بالعوض، ألا ترى قوله: (من أحب أن يطيب بذلك) ، فأراد عليه السلام أن يطيب نفوس المسلمين لأهل هوازن بما أخذ منهم من العيال، ليرفع الشحناء والعداوة، ولا تبقى إحنة الغلبة لهم فى انتزاع السبى منهم فى قلوبهم، فيولد ذلك اختلاف الكلمة[3].

ومن خلال ما سبق تبين لنا مدى حرص النبي (صلى الله عليه وسلم) على التحفيز على إبداء الرأي والاستماع لوجهات النظر من أجل صناعة جيل قيادي فعال يسهم في بناء الأمة ونصرة الدين.

فمدار الحضارة والشهود إذاً على وعي الإنسان بإرادته، وتحكمه فيها، وقدرته على تفهم أنه خليفة في الأرض من قبل الله تعالى.

4. الشورى وعلاقتها بالحرية

1 – إكمال المعلم بفوائد مسلم،540/7. القاضي عياض.

2 – الجامع الصحيح،كتاب العتق، باب من ملك من العرب رقيقا فباع ووهب...،147/3،رقم:2539. البخاري.

3 – شرح صحيح البخاري، 443/6. ابن بطال.

ومن دعائم بناء الحرية في نفس البشرية ما نادى به الإسلام من الشورى، والمشاورة، والاستشارة، ومفرداتها، ولقد عني القرآن الكريم بالشورى عناية فائقة، وأولاها اهتماما واضحا، ويعنينا منها هنا أثرها في بناء قيمة الحرية في نفس الإنسان، وأثر ذلك في جعله إنسانا قادرا على الشهود الحضاري، بمعناه الشامل الكامل، من حضور، وعلم، وبلاغ، بل بلاغ مبين، وأمانة في هذا البلاغ، وقدرة على إقامة الحق، والحكم بالقسط، ولو على نفسه أو ذوي القربى، وأن تُخرج منه الإنسان المثال، الذي يعمر الأرض بمنهاج السماء، ويصلح الدنيا على سنا من ضوء الدين، أن يكون **إنسان الشهود الحضاري** بحق.

لقد دعا الله (تعالى) رسوله **(صلى الله عليه وسلم)** إلى مشاورة أصحابه في ظرف زماني عجيب، حين نفكر في الترابط بينه وبين طلب الشورى، لقد كان النزول على رأي بعض الصحابة في أُحُد سببا من أسباب الهزيمة، ومع ذلك فقد أكد القرآن قيمة الشورى، بعد معالجة بديعة لنفوس الصحابة، وأحداث الغزوة، (والشورى ممَّا جبل الله عليه الإنسان في فطرته السليمة، أي: فطره على محبّة الصلاح، وتطلّب النجاح في المساعي؛ ولذلك قرن الله (تعالى) خلق أصل البشر بالتَّشاور في شأنه إذ قال للملائكة: (إني جاعل في الأرض خليفة)، البقرة : 30 ، إذ قد غَنِي الله عن إعانة المخلوقات في الرأي ولكنَّه عرض على الملائكة مراده ليكون التَّشاور سنّة في البشر ضرورة أنّه مقترن بتكوينه ، فإنّ مقارنة الشيء للشيء في أصل التكوين يوجب إلفه وتعارفه ، ولما كانت الشورى معنى من المعاني لا ذات لها في الوجود جعل الله إلفها للبشر بطريقة المقارنة في وقت التكوين . ولم تزل الشورى في أطوار التاريخ رائجة في البشر فقد استشار فرعون في شأن موسى (عليه السَّلام) فيما حكى الله عنه بقوله: (فماذا تأمرون). واستشارت بلقيس في شأن سليمان عليه السلام فيما حكى الله عنها بقوله: (قالت يأيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون وإنَّما يلهي النَّاس عنها حبّ الاستبداد ، وكراهية سماع ما يخالف الهوى، وذلك من انحراف الطبائع وليس من أصل الفطرة ، ولذلك يهرع المستبدّ إلى الشورى عند المضائق.)[1]

وجاءت الأحاديث النبوية مؤيدة لما نص عليه القرآن الكريم من الإشادة بشأن الشورى والحث على اتباعها والتنويه بفضائلها وهذه بعض النماذج من فعله (صلى الله عليه وسلم):

عن ابْنَ عُمَرَ، كَانَ يَقُولُ: كَانَ المسْلِمُونَ حِينَ قَدِمُوا المدِينَةَ يَجْتَمِعُونَ فَيَتَحَيَّنُونَ الصَّلاَةَ لَيْسَ يُنَادَى لَهَا، فَتَكَلَّمُوا يَوْمًا فِي ذَلِكَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: اتَّخِذُوا نَاقُوسًا مِثْلَ نَاقُوسِ النَّصَارَى، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ بُوقًا مِثْلَ قَرْنِ اليَهُودِ، فَقَالَ عُمَرُ: أَوَلاَ تَبْعَثُونَ رَجُلًا يُنَادِي بِالصَّلاَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا بِلاَلُ قُمْ فَنَادِ بِالصَّلاَةِ»[2]

قال ابن رجب: وفي هذا دليل على استحباب التشاور في مصالح الدين والاهتمام بها، فلما تشاوروا أشار بعضهم بالناقوس كفعل النصارى، وأشار بعضهم بالبوق كفعل اليهود، فقال عمر: أولا تبعثون رجلا ينادي بالصلاة.[3]

وعَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) شَاوَرَ حِينَ بَلَغَهُ إِقْبَالُ أَبِي سُفْيَانَ، قَالَ: فَتَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ تَكَلَّمَ عُمَرُ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، فَقَالَ: إِيَّانَا تُرِيدُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ

1- التحرير والتنوير: (5 / 384).

2- الجامع الصحيح،كتاب الآذان،باب بدء الآذان،1/124، رقم:604. البخاري.

3- فتح الباري،5/186 ابن رجب.

نُخِيضَهَا الْبَحْرَ لَأَخَضْنَاهَا، وَلَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نَضْرِبَ أَكْبَادَهَا إِلَى بَرْكِ الْغِمَادِ لَفَعَلْنَا، قَالَ: فَنَدَبَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسَ، فَانْطَلَقُوا حَتَّى نَزَلُوا بَدْرًا، وَوَرَدَتْ عَلَيْهِمْ رَوَايَا قُرَيْشٍ...[1]

وذهب ابن حجر إلى أن النبي (صلى الله عليه وسلم) استشارهم في غزوة بدر مرتين الأولى وهو بالمدينة والثانية كانت بعد أن خرج[2]

واستشارة الرسول (صلى الله عليه وسلم) لأصحابه رضوان الله عليهم المرة الثانية ليبين للأمة الإسلامية أهمية مبدأ الشورى في الإسلام، ولأن الأنصار رضوان الله عليهم كانوا يشكلون الغالبية العظمى من جيشه -(صلى الله عليه وسلم)-، وبذلك يبنى القرار الذي يتخذ على رأيهم وأكثريتهم، ولأنهم أصحاب الأرض التي انطلقت منها القوة المؤمنة[3] إلى غير هذه الاستشارات الثابته في أمور الدين والدنيا، السلم والحرب والأحاديث في ذلك مستفيضة .

وما دامت الشورى تقوم على تقليب أوجه الرأي وتبادل النظر بين مجموعة من الناس لاستكشاف الرأي الأصوب فإن العلاقة بينها وبين حرية الرأي لا يمكن أن تنفصل إذ لن تقوم بحق إلا بشرط إبداء الرأي بحرية تامة.[4]

5. الأدلة الإقناعية في القرآن الكريم وعلاقتها بحرية الرأي

ومن أساليب غرس القرآن لقيمة حرية الرأي في نفوس الناس طريقته في سوق الأدلة الإقناعية، ومنهجيته في التناول والتعامل مع وسائل الإقناع، فتنوعت أساليبه في إقناع السامع، بين قصة تختم بخلاصة وعبرة، وموعظة تؤثر في القلب، وتنبه العقل، وبرهان بين، وجدلية عقلية، لا يملك السامع لها إنكارا، ولا منها فكاكا، والمتأمل لأدلة البعث والنشور، وتناول القرآن لها يجد ذلك واضحا.

فمرة يقول القرآن: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾، ومرة يقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، ومرة يقول: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾.

ومرة يستدل على ذلك بوقائع حصل فيها الإحياء بعد الموت، كقوله (تعالى): ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ

1- الجامع الصحيح،كتاب الجهاد والسير، باب غزوة بدر الكبرى، 1403/3، رقم: 1779. مسلم.

2- فتح الباري،288/7. ابن حجر.

3- صحيح السيرة النبوية، ص166. إبراهيم بن محمد العلي.

4- انظر:حرية الرأي في الإسلام، ص: 120. محمد الخطيب.

تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، البقرة: 259،260.

ومرة يستدل بإخراج النار من الشجر الأخضر، ومرة يستدل بحصول اليقظة بعد النوم، إلى غير ذلك من تلوين الدليل، وتنويع الحجة، وتبيين المحجة، بما يتيح للسامع أن يصل إلى الحق بالطريق التي يأنس لها، ويطمئن إلى سلامتها، كل ذلك تربية للبشرية على حرية الرأي والتفكير؛ لأنها مناط البناء والعمران، وأساس الحضارة والشهود.

ويظهر جليا لكل مطلع على السنة النبوية أن النبي (صلى الله عليه وسلم) استخدم جملة من الأساليب الإقناعية من أجل صناعة جيل يدرك قيمة الحرية ويدافع عنها ،ومن ذلك:

ما ورد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وُلِدَ لِي غُلاَمٌ أَسْوَدُ، فَقَالَ: «هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «مَا أَلْوَانُهَا؟» قَالَ: حُمْرٌ، قَالَ: «هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقَ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَأَنَّى ذَلِكَ؟» قَالَ: لَعَلَّهُ نَزَعَهُ عِرْقٌ، قَالَ: «فَلَعَلَّ ابْنَكَ هَذَا نَزَعَه[1]».

وفي هذا بيان لمنهج النبي (صلى الله عليه وسلم) في انتقاء الأمثلة لإقناع صحابته بالدليل القاطع والحجة البالغة.

وعنْ أَبِي بَكْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ(صلى الله عليه وسلم) وَسَلَّمَ قَالَ: " الزَّمَانُ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَةِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ: ثَلاَثَةٌ مُتَوَالِيَاتٌ: ذُو القَعْدَةِ، وَذُو الحِجَّةِ، وَالمحَرَّمُ، وَرَجَبُ مُضَرَ، الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ، أَيُّ شَهْرٍ هَذَا "، قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: «أَلَيْسَ ذُو الحِجَّةِ»، قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: «فَأَيُّ بَلَدٍ هَذَا». قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: «أَلَيْسَ البَلْدَةَ». قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: «فَأَيُّ يَوْمٍ هَذَا». قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: «أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ». قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: " فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ، - قَالَ مُحَمَّدٌ: وَأَحْسِبُهُ قَالَ - وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، وَسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ، فَسَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ، أَلاَ فَلاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي ضُلَّالًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ، أَلاَ لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ، فَلَعَلَّ بَعْضَ مَنْ يُبَلَّغُهُ أَنْ يَكُونَ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضِ مَنْ سَمِعَهُ ". فَكَانَ مُحَمَّدٌ إِذَا ذَكَرَهُ يَقُولُ: صَدَقَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: «أَلاَ هَلْ بَلَّغْتُ» مَرَّتَيْنِ[2].

قال ابن حجر في شرحه لهذا الحديث: قَالَ الْقُرْطُبِيُّ سُؤَالُهُ (صلى الله عليه وسلم) عَنِ الثَّلَاثَةِ وَسُكُوتُهُ بَعْدَ كُلِّ سُؤَالٍ مِنْهَا كَانَ لِاسْتِحْضَارِ فُهُومِهِمْ وَلِيُقْبِلُوا عَلَيْهِ بِكُلِّيَّتِهِمْ وَلِيَسْتَشْعِرُوا عَظَمَةَ مَا يُخْبِرُهُمْ عَنْهُ وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْدَ هَذَا فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ إِلَخْ مُبَالَغَةً فِي بَيَانِ تَحْرِيمِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ انْتَهَى، وَمَنَاطُ التَّشْبِيهِ فِي قَوْلِهِ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ وَمَا بَعْدَهُ ظُهُورُهُ عِنْدَ السَّامِعِينَ لِأَنَّ تَحْرِيمَ الْبَلَدِ وَالشَّهْرِ وَالْيَوْمِ كَانَ ثَابِتًا فِي نُفُوسِهِمْ مُقَرَّرًا عِنْدَهُمْ بِخِلَافِ الْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ وَالْأَعْرَاضِ فَكَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَسْتَبِيحُونَهَا

1 - الجامع الصحيح،كتاب الطلاق، باب إذا عرض بنفي الولد،53/17،رقم:5305. البخاري.

2 -الجامع الصحيح،كتاب المغازي:باب حجة الوداع،177/5،رقم:4406. البخاري.

فَطَرَأَ الشَّرْعُ عَلَيْهِمْ بِأَنَّ تَحْرِيمَ دَمِ الْمُسْلِمِ وَمَا لهُ وَعِرْضِهِ أَعْظَمُ مِنْ تَحْرِيمِ الْبَلَدِ وَالشَّهْرِ وَالْيَوْمِ فَلَا يَرِدُ كَوْنُ الْمُشَبَّهُ بِهِ أَخَفْضَ رُتْبَةً مِنَ الْمُشَبَّهِ لِأَنَّ الْخِطَابَ إِنَّمَا وَقَعَ بِالنِّسْبَةِ لِمَا اعْتَادَهُ الْمُخَاطَبُونَ قَبْلَ تَقْرِيرِ الشَّرْعِ[1].

6. التعليل في القرآن الكريم وعلاقته بالحرية

ومن أساليب القرآن في غرس قيمة الحرية في نفوس الناس تعليل الأحكام،وهو: (أن يذكر الشيء معللا فإنه أبلغ من ذكره بلا علة لوجهين: أحدهما أن العلة المنصوصة قاضية بعموم المعلول، الثاني أن النفوس تنبعث إلى نقل الأحكام المعللة، بخلاف غيرها، وغالب التعليل في القرآن هو على تقدير جواب سؤال اقتضته الجملة الأولى، وهو سؤال عن العلة، ومنه ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾،يوسف: 53. ومنه: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، التوبة: 103.[2] وفائدته التقرير والأبلغية فإن النفوس أبعث على قبول الأحكام المعللة من غيرها)[3]

تجد ذلك بينا في تعقيب كثير من الأحكام الإلهية، بصورة لافتة للنظر؛ فالله (تعالى) غني عن أن يعلل لعباده فعله؛ لكنه يعلمهم استقلال الرأي، وحرية العقل، ومنطقية الإقناع؛ لأنه (تعالى) يعد هذا الإنسان لخلافته في الأرض؛ يقيم عليها حضارة، ويبني فيها مدنية، تليق بإقامة شرع الله، وتحكيم كتابه؛ لذلك كلما كانت أفعال البشر معللة مسببة كلما كانت أقرب إلى التفهم والقبول، لقد غرس القرآن في نفوس أتباعه قيمة النقد، وتتبع الدليل، والنظر في المآلات؛ رغبة في بناء شخصية سوية حرة قادرة على الاختيار،عالمة بمغانمه ومغارمه، ولا تقوم حضارة إلا بهذه الشخصية السوية، التي تعي قيمة الحرية، فتعشقها وتتشوف إليها، وتتشوق بل تتحرق إلى وجودها، والعيش في ظلالها.

ولو رجعنا إلى السنة النبوية واستقرأنا ما فيها من الأحاديث لوجدنا الكثير من الأحكام الواردة فيها معللة ومن الأمثلة على ذلك: عن المغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ، أَنَّهُ خَطَبَ امْرَأَةً، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «انْظُرْ إِلَيْهَا، فَإِنَّهُ أَحْرَى أَنْ يُؤْدَمَ بَيْنَكُمَا»[4].

لأنه إذا نَظرَ، فإن مالَ قلبُه إليها وتزوَّجها، يكون تزوّجَها عن معرفةٍ ورؤيةٍ، وكلُّ فعلٍ يكون عن معرفةٍ وتجربة، لا تكون بعدَه مَلامَةٌ غالبًا، وإن لم يَنظرْ إليها فربما يُظنُّها جميلةً، فإذا تَزوَّجها عن هذا الظنِّ، فربما لا تكون كما ظَنَّها، فيكون بعدَ ذلك نادمًا على تزوُّجِها، ولا يكونُ له بها أُلفةٌ[5] ..

7. موقف القرآن من الطغيان السياسي وعلاقة ذلك بغرس قيمة الحرية

1 –فتح الباري،159/1. ابن حجر.

2 – البرهان في علوم القرآن: (3 / 91).

3 – الإتقان في علوم القرآن: (3 / 255).

4 –الجامع، أبواب النكاح، باب ما جاء في النظر إلى المخطوبة، 389/3،رقم:1087. الترمذي.

5 – المفاتيح في شرح المصابيح، 22/4. المظهري.

ومن اللافت للنظر، والداعي إلى التأمل وأخذ العبر، موقف القرآن من الطغيان السياسي، واستبداد الفرد، وحكم الفرعون، سواء كان ذلك الفرعون صغيرا أو كبيرا، قريبا أو بعيدا، مصبوغا بصبغة سياسية أو حتى دينية، مقارنة ذلك بواقع المسلمين، وما هم عليه في الواقع المعيش، لقد أراد القرآن أن يجعل الفرد المسلم، بل الإنسان عامة حرا،مستقلا، لا يتحكم في إرادته متحكم، ولا يسطو على رأيه جبار عنيد، من لصوص العقول، وسُرَّاق الحرية، وغرس في نفوس السامعين ذلك بموقفه البيِّن من الطغيان السياسي، فذكر نماذج المستبدين، وإمامهم فرعون الذي قال: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾، غافر: (29).

بل بلغ الأمر بالقرآن الكريم أن يخاطب أعظم الخلق الحريص على هدايتهم، والموشك أن يبخع نفسه على آثارهم بقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾، الفجر: 21، 22. وقوله: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، الأنعام: 35.

كما أبان القرآن عن آثار الاستبداد السياسي، من ضياع آدمية البشر، وغياب الرغبة في التقدم، أو القدرة على الإبداع والابتكار، واسترقاق الناس حسا ومعنى، وأنه يقطع على المصلحين طريقهم، كما يطبع الأمة بطابع الاستخذاء، ويكبت الحريات ويعقل الألسنة، والإسلام لا يرضى بالاستبداد بل إن الإسلام والاستبداد (ضدان لا يلتقيان فتعاليم الدين تنتهي بالناس إلى عبادة ربهم وحده، أما مراسيم الاستبداد فترتد بهم إلي وثنية سياسية عمياء)[1]. ولا يمكن أن يعيش الاستبداد هانئا أو مستريحا في بيئة ينتعش فيها الإسلام؛ لأن الثاني عدو الأول اللدود، وهل جاء الرسول (**صلى الله عليه وسلم**) إلا ليفك أغلال القرون الأولي، وما تركته في القلوب من زيغ وفساد، وما خلفته في العقول من خرافة وضلال، وتلك كلها آثار الاستبداد، الذي يشل العقل، ويوقف الفكر، ويجعل المرء محصورا في دائرة أضيق من دائرة حسه في الحياة، إن في الجو الصحو والأرض المشمسة (تموت الديدان وتنقرض الأوبئة، ولكن الاسترقاق السياسي عدو البشرية الأول، وسرطان الأمم المعذبة، وفي ليله الطويل لا تلمح العقول أشعة المعرفة، ولا تدري الطباع معنى الكرامة، ولا تشرب النفوس حب الخير)[2]. تلك المعاني التي عمل الإسلام علي إنمائها في النفس، وغرسها في الفؤاد فكان الإسلام يبني والاستبداد يهدم، و كان الإسلام يغرس والاستبداد يقتلع من الجذور.

والحق أن الإسلام أولى الأديان بمطاردة الاستبداد والاستعباد، بكل معانيه، ومحاربته بكل ما في اليد من أداة، ولم تر في الحياة شريعة قاومت الاستبداد والاستعباد كما قاوم الإسلام (ولا تعرف دينا صب على الاستبداد سوط عذاب، وأسقط اعتبارهم وأغرى الجماهير بمناوأتهم والانقضاض عليهم كالإسلام، ولا تعرف مصلحا أدب رؤساء الدول وكبح جماحهم، وقمع

1- الإسلام والاستبداد السياسي ص 37 .

2- السابق ص: 17. الإسلام والأوضاع الاقتصادية ص: 41 .

وساوس الكبرياء والاشتهار في نفوسهم كما فعل ذلك نبي الإسلام (**صلى الله عليه وسلم**) لقد كسر القيود، وحرر العبيد، ووضع التعاليم التي تجعل الحاكم يتحرى العدل، والمحكوم يكره الضيم)[1].

إن تعاليم الإسلام التي ملأت كتاب الله وسنة رسوله (**صلى الله عليه وسلم**) كانت أقصى كفاح ضد لون من الحكم ساد بلاد الإسلام قرونا،لو بليت بقاع أخرى من الدنيا لما بقيت فيها مظاهر للحياة، ولا معالم للعمران[2].

المبحث الثاني: أثر الحرية في النهضة والشهود الحضاري ومنهجية القرآن في بيان ذلك

كلما كانت الأمة أملك لرأيها، وأقدر على اتخاذ قرارها، كلما كانت سياسة العمران والنهضة فيها مستقرة باذخة، قوية راسخة، تبني على علم، وتؤسس على فهم، وترسخ على أسس سليمة، فتتعمق الجذور، ويستطيل البناء، وتمضي على رؤية واضحة، وبصيرة واعية، وبينة باهرة.

والمتأمل للممالك التي عني القرآن بذكرها، والحديث عنها، يجد سببا أصيلا من أسباب النهضة فيها، في استمرارها واستقرارها، ونمائها وبقائها: **حرية الإنسان،** وقدرته على الصَدْع برأيه دون مواربة أو التواء، والجهر بما يجول بخاطره، دون خوف أو رياء، سواء كانت تلك الحرية حرية في التعبير أو التفكير، حرية في الحوار أو المشورة، حرية تعطي للفرد قدرة على التفكير، الحي، البنَّاء، الذي يمضي بحثا عن الحق، لا مشيا في ركاب الحاكم المستبد، وطلبا للنهوض، لا سعيا في إرضاء السيد الكبير، ولكم تفكرت في تلك الفترات التي زخرت فيها الحضارة الإسلامية بألوان العلوم والمعارف، وحفلت بصور الانفتاح على الآخر، انفتاحا يعلي من قيمة الإنسانية، ويَفيد مما لديها في جانب العلم والتقنية التي ليس لها وطن، بل وطنها من يكرمها، ويعلي قدرها، فوجدت أن من أعظم أسباب ذلك: جو الحرية الفسيح، الذي عاشت فيه الدولة تلك الفترة، وما حركة الترجمة عنا ببعيد.

وإذا تأملنا نماذج من تلك الحضارات التي عُني القرآن برصدها، ولفت إليها أنظار المسلمين، المطالَبين بالشهود الحضاري والمؤهلين به، وجدناه على النحو الآتي:

بلقيس وأثر الحرية في بناء حضارتها

إذا نظرنا إلى بلقيس، ملكة اليمن، وكيف كانت تعامل رعيتها، ومجلس شوراها ،عرفنا كيف يمكن لأمة تقوم على حرية الرأي أن تقيم حضارة، وتبني مجدا، وإن كان على غير منهاج صحيح يربط الناس بربهم، ويعلقهم بآخرتهم، لكن الذي يعنينا هنا أن نسلط الضوء على قيمة الحرية، وأثرها في بناء الحضارة، لقد رأينا بلقيس تتحاور مع قومها بصورة لافتة للنظر، من حيث العرض والطرح، وذكر المبررات والأسباب، والحرص عليها، في أخذ رأيهم، والإفادة من خبرتهم ، وإعلاء قيمة الحرية

1- السابق ص 69 .

2 راجع من هنا نعلم: ص228 بتصرف .

لديهم بما يتيح لهم أن يشيروا عليها مطمئنين آمنين، لا خائفين ولا مراقبين: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾، النمل: 29-35.

وحضارة تلك المملكة معروفة مشهودة، حتى قال عنها القرآن الكريم: (**وأوتيت من كل شيء**)، وهذا ما لاحظه هدهد سليمان، ونقله إليه، (وهي كناية عن عظمة ملكها وثرائها، وتوافر أسباب الحضارة، والقوة والمتاع. {**ولها عرش عظيم**}. أي سرير ملك فخم ضخم، يدل على الغنى والترف وارتقاء الصناعة.)[1]

لقد لفت النظر في الآيات وعي المرأة وتركيزها على نقاط لا يقف عليها إلا من خبر سنن الملوك وعاداتهم، وسبر طرائقهم ومسالكهم، كما لفت النظر في حديثها استشارتها لقومها، وهي من هي سلالة ملوك وتربية عز.

لقد أبانت ملكة سبأ عن سر قوة مملكتها متمثلة في الشورى التي هي أساس الحرية الحقيقية، وبينت ذلك بطريقة دالة على اطرادها في مملكتها، وحفاظها على ذلك لعلمها أن الحرية سبب من أسباب قيام واستمرار الحضارة، وبقاء التقدم، بقولها: ﴿مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾، النمل: (32).

وأظهرت وعيها بمسالك الملوك، واستبدادهم، وغلبهم على حرية الشعوب، بما يكون سببا في انهيار الممالك وزوالها، وتهدم الحضارات واندثارها بقولها: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾، النمل: (34).

وهل هناك مذلة أكثر من ضياع الحريات، وفوات الإرادات، وأن يقول الإنسان ما لا يعتقد وأن يعتقد ما لا يقدر على البَوْح به ؟؟

فهي ترى: (أن الملوك إذا دخلوا قرية عنوة وغلبة أفسدوها، وخربوها، وجعلوا أعزة أهلها أذلة، وذلك باستعبادهم الأحرار، واسترقاقهم إياهم، وتناهى الخبر منها عن الملوك في هذا الموضع، بقولها: (وكذلك يفعلون)[2]

إنها (تعرف أن من طبيعة الملوك أنهم إذا دخلوا قرية (والقرية تطلق على المدينة الكبيرة) أشاعوا فيها الفساد، وأباحوا ذمارها، وانتهكوا حرماتها، وحطموا القوة المدافعة عنها، وعلى رأسها رؤساؤها، وجعلوهم أذلة؛ لأنهم عنصر المقاومة، وأن هذا هو دأبهم الذي يفعلونه.)[3]

لقد عرفت المرأة الملكة فعل الملوك المستبدين من خلال التاريخ والواقع، فاستدلت من التاريخ بقولها: {إذا دخلوا قرية أفسدوها}، ومن الواقع بقولها: {وكذلك يفعلون}.

---

1 – في ظلال القرآن: (5 / 380).

2 – جامع البيان:(13 / 224)، وتفسير الخازن: 144/5، زاد المسير: 6/ 168،والوجيز للواحدي:803/2.

3 – في ظلال القرآن: (5 / 382)، بتصرف يسير.

فهو(استدلال على المستقبل بحكم الماضي، على طريقة الاستصحاب، وهو كالنتيجة للدليل الذي في قوله:{إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها}. والإشارة إلى المذكور من الإفساد وجَعْلِ الأعزة أذلة، أي فكيف نلقي بأيدينا إلى من لا يألو إفساداً في حالنا)[1]

ذو القرنين وأثر الحرية في بناء حضارته

وإذا انتقلنا إلى نموذج آخر من نماذج إقامة الحضارة، وعمارة الأرض، ذي القرنين، وجدنا ظهور قيمة الحرية في منهجيته، بصورة تؤكد لنا أساسيتها في بناء الحضارة، وأهميتها في استمرارها واستقرارها، وأي حضارة أرسخ، وأي مدنية أعظم من أن يصفها ويصف رائدها القرآن الكريم بقوله: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾، الكهف: 84، 85.

(والتمكين هاهنا الإقدار، وتمهيد الأسباب، يقال مكنه ومكن له كنصحته ونصحت له وشكرته وشكرت له؛... والمعنى أنا جعلنا له مكنة وقدرة على التصرف في الأرض من حيث التدبير والرأي وكثرة الجنود والهيبة والوقار، وقيل: تمكينه في الأرض من حيث إنه سخر له السحاب، ومد له في الأسباب، وبسط له النور فكان الليل والنهار عليه سواء... وقيل : تمكينه بالنبوة وإجراء المعجزات)[2]

وأي ضمان للحرية أكثر من أن يطبِق فيمن معه العدالة والمساواة، وهما من أسس توفير الحرية، وضمان استمرارها، وذلك في حديثه عن منهجية التعامل مع من ظلم ومن آمن، بقوله: ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾، الكهف: 87، 88. (لقد أثنى الله (تعالى) على جوابه بهذا العرض، وبين صلاح منهجه في الحكم.[3]

ولم يكن ذو القرنين ملكا عاديا، بل كان ملكا ذكره التاريخ، وخلده القرآن، وتكفي إشارة القرآن إلى عظم أخباره بقوله (تعالى): (إنا سنتلوا عليكم منه ذكر)، يعني: طرفا من أخباره، وليس كل أخباره؛ فهي من الكثرة بمكان، وذلك ما لم يتكرر في قصص القرآن في قصة أخرى، والمتأمل لقصته يجد أنها تعطي صفات لا محيد عنها، (إحداها : أنه كان ملكا صالحا عادلا.الثانية : أنه كان ملهما من الله. الثالثة: أن ملكه شمل أقطارا شاسعة، الرابعة: أنه بلغ في فتوحه من جهة المغرب مكانا كان مجهولا وهو عين حمئة.[4] و هذا فيه من سعة الملك، واستقامة المنهاج، واستقرار الحضارة، وعمق التمكين ما فيه.

إن بيان ذي القرنين عن منهجيته في التعامل مع رعيته فيه من ضمان الحرية والعدالة ما يعد منهاجا يلفت حوله الحاكم والمحكوم،(إن قوله هذا يضع أساساً ودستوراً إيمانياً لمطلق الحياة، وعلاقة الحاكم بالمحكومين، وعلاقة الفرد بنفسه وبمن حوله. وعلاقة الإنسان بالعمل الصالح أو بالذنوب [5].

---

1 – التحرير والتنوير: (21 / 41)، ومراح لبيد:15/21، ومفاتيح الغيب: 24/ 166.

2 – تفسير الألوسي: (11 / 391)، والخازن: 229/4، والسراج المنير:316/2، وروح البيان:223/5، تيسير الكريم الرحمن، للسعدي:485/1.

3 – التحرير والتنوير: (16 / 26)، بتصرف.

4 – التحرير والتنوير: (16 / 20)، اللباب في علوم الكتاب:(12 / 553)، المحرر الوجيز:538/3، ابن زمنين: 78/3.

5 – تفسير الشعراوي: (/ 579).

وإذا وجدت الحرية والعدالة، وجد معهما البناء والعمران، والتفكير والابتكار، عندما يجد الفرد في أمته ومجتمعه ثبات منهاج التعامل في الثواب والعقاب، والتكريم والتجريم، يدفعه ذلك بلا ريب إلى التفكير الحر، والإنتاج المفيد؛ لأنه يعلم أن جهده مشكور لا منكور، وأن عطاءه مأجور لا مأزور، وأن يدا باغية لن تحطم رأسه إذا فكر في أمر لا تعده العقول المستبدة من المألوف المعروف، كما حدث ذلك في أمم سخرت من العلم، واعتنقت الخرافة، وأسلمت قيادها لمجموعة من ضُلَّال الأحبار والرهبان،(وهذا الذي خطه ذو القرنين، هو دستور الحكم الصالح، فالمؤمن الصالح ينبغي أن يجد الكرامة والتيسير، والجزاء الحسن عند الحاكم، والمعتدي الظالم يجب أن يلقى العذاب والإيذاء، . . وحين يجد المحسن في الجماعة جزاء إحسانه جزاء حسناً، ومكاناً كريماً وعوناً وتيسيراً، ويجد المعتدي جزاء إفساده عقوبة وإهانة وجفوة . . عندئذ يجد الناس ما يحفزهم إلى الصلاح والإنتاج . أما حين يضطرب ميزان الحكم فإذا المعتدون المفسدون مقربون إلى الحاكم مقدمون في الدولة؛ وإذا العاملون الصالحون منبوذون أو محاربون، فعندئذ تتحول السلطة في يد الحاكم سوط عذاب وأداة إفساد، ويصير نظام الجماعة إلى الفوضى والفساد.)[1]

سليمان (عليه السلام) وأثر الحرية في بناء حضارته

رصد القرآن الكريم ملامح عن الحضارة في عهد سليمان (**عليه السلام**)، وعلاقة الحرية بتلك الحضارة في قوله (تعالى): ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾

إن العصر الذي عاش فيه سليمان (عليه السلام)، يعد العصر الذهبي لبني إسرائيل، والحضارة التي أقامها حضارة جمعت بين نور الوحي وسلطان العلم، وسخر الله (تعالى)له الجن والإنس والطير والريح، كما صور ذلك القرآن الكريم تصويرا بديعا، في مواطن متعددة، في سور: البقرة، والنساء، والأنعام، والأنبياء،و النمل، وسبأ، وص، بعضها بتفصيل وبعضها بإشارة سريعة...

وهي حضارة قامت على قيم إنسانية راقية، ومعاني أخلاقية رائقة، ومما يعنينا هنا الوقوف على أثر الحرية في حضارة سليمان (عليه السلام)، والآيات التي حوتها سورة النمل، والتي صُدر بها الحديث عن حضارة سليمان، شملت ملامح الحرية التي عاش فيها الخلق في ظل هذه الحضارة، وليس أدل على ذلك من الحوار الدائر بين جندي صغير في تلك المملكة الحضارية النموذج، وبين رأس الدولة، وعماد المملكة، سليمان (عليه السلام)، لقد وقف الهدهد أمامه ليفاجئه بهذا

1 – في ظلال القرآن: (5 / 79).

الاستهلال البديع اللافت للنظر، المسترعي للانتباه، الذي يقول فيه لرأس الدولة، النبي الملك: (أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبإ بنبإ يقين)، فأي حرية تلك التي كانت توليها الدولة لأفرادها حتى يقول جندي كالهدهد لسليمان ما قال.

إن كلام الهدهد لسليمان حوى ثلاثة أوجه: (أحدها : بلغت ما لم تبلغه ، قاله قتادة . الثاني : علمت ما لم تعلمه ، قاله سفيان، الثالث: اطلعت على ما لم تطلع عليه، قاله ابن عباس، والإحاطة العلم بالشيء من جميع جهاته،... **وَجِئْتُكَ مِنَ سَبَإٍ بِنَبإٍ يقين**)، أي: بخبر صحيح صدق)[1]

أما كيف بادر الهدهد سليمان بذلك، مع مكانة سليمان، وصغر الهدهد؛ فلأمور منها: شعوره بأنه ما دام على حق فلن يضيع رأيه، وعلمه بثبات المنهاج الذي يحكم به سليمان، فلا ظلم لبريء، ولا عدوان على صاحب رأي، ولا مصادرة لفكر، بل السلطان لدى الجميع هو البرهان الواضح، والحجة البينة،حتى نقل بعض المفسرين سؤال الهدهد لرسول سليمان، عندما حذره من مغبة غيابه، عن منطوق قول سليمان فقال: (أوَ ما استثنى؟ قال : بلى، قال : {**أوْ لَيأتيني بسلطان مبين**}، قال: قد نجوت إذا..[2]، فانظر دلالة ذلك الاطمئنان من هذا الجندي إلى عدالة المنهاج، وسواسية التعامل، ووضوح القاعدة، حتى استراحت نفسه لما قاله، وتأكد من نجاته.! (والسلطان المبين هنا يراد به وجهان: أحدهما: بحجة بينة. الثاني: بعذر ظاهر، قاله قتادة.)[3]

يعني بحجة بينة واضحة أعذره بها (فإن قيل كيف يجوز أن يعاقب من لا يجري عليه القلم؟ قيل له: تجوز العقوبة على وجه التأديب إذا كان منه ذنب كما يجوز للأب أن يؤدب ولده الصغير، وأما الذبح فيجوز وإن لم يكن منه الذنب)[4]

وفي ترتيب هذا الجندي من جنود مملكة سليمان لطرح القضية، واختيار البداية بتلك الطريقة، وترتيب وقوفه بين يدي سليمان، يعطي دلالة على ما كان عليه هذا الجندي من وعي، وما نشأ فيه من حرية، تحمله على الصدع برأيه، ولو أمام أكبر رأس في الدولة، ما دام اتخذ السبيل الأمثل في طرح قضيته، وعرض رؤيته، وتحلى بأدب الخطاب، ولباقة العرض، فليس هناك من هو أصغر من يَنصح، وليس هناك من هو أكبر من أن يُنصح، (وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الصَّغِيرَ يَقُولُ لِلْكَبِيرِ ، وَالْمُتَعَلِّمِ لِلْعَالِمِ : عِنْدِي مَا لَيْسَ عِنْدَك ، إذَا تَحَقَّقَ ذَلِكَ وَتَيَقَّنَهُ)[5]، فتلك سمة من سمات الحضارة الناجحة عموما، وسمة من سمات الحضارات التي تقوم على أساس الوحي خصوصا، (وابتداء كلامه بذلك لترويجه عنده (عليه السلام)، وترغيبه في الإصغاء إلى اعتذاره، واستمالة قلبه نحو قبوله؛ فإن النفس للاعتذار المنبئ عن أمر بديع أقبل، وإلى تلقي ما لا تعلمه أميل، وأيد ذلك بقوله: {وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ} حيث فسر إبهامه السابق نوع تفسير، وأراه (**عليه السلام**)، أنه كان بصدد إقامة خدمة مهمة له حيث عبر عما جاء به بالنبأ الذي هو الخبر الخطير، والشأن الكبير، ووصفه بما وصفه)[6].

---

1 – النكت والعيون: (4 / 202)، وانظر تفسير ابن أبي زمنين: (3 / 297).

2 – البحر المديد: (4 / 374)، و تفسير ابن أبي حاتم للإمام الرازي: (10 / 71).

3 – النكت والعيون: (4 / 202).

4 – بحر العلوم (2 / 577).

5 – أحكام القرآن لابن العربي: (6 / 209).

6 – تفسير الألوسي: (14 / 449)،وانظر: تفسير القرآن العظيم: (28 / 14).

إن جندي سليمان ما كان ليكلف نفسه عناء البعد، ويتحمل وعثاء السفر؛ بحثا عن أرض أخرى يرى فيها حال قوم يعبدون الشمس، ويسجدون لها من دون الله لينقل خبرهم إلى مليكه صاحب الرسالة والمملكة، لو كان خائفا على ضبطه متهما، أو تلفق له تهمة باطلة، أو يطارد في رزقه بحجة أنه وضع أنفه فيما لا يخصه، إن الرسالة في تلك المملكة واضحة للجميع، من أكبر فرد إلى أصغر فرد، والكل يسعى في منظومة متناغمة، ويعمل على هدف واحد، ويسعى إلى غاية واحدة، وهو آمن مطمئن، واثق مستبشر، يعلم حقية المنهاج الذي يحكم تلك الحضارة، ومصداقية الحكم الذي يطبق على الجميع، وفي مثل تلك البيئات تنهض الحضارات، وتنمو الفِكَر، وتثمر التجارب، وتتقدم الأمم، ويبذل كل فرد ما لديه؛ لأنه يصب في النهاية في صالح الجميع.

ولقد حفلت السنة النبوية المطهرة بصور من الحوار والنقاش بل المراجعة من بعض الصحابة للرسول (صلى الله عليه وسلم)، تؤكد قيمة الحرية، والحوار مظهر من مظاهرها، وثمرة من ثمراتها، وأثر ذلك في النهضة والحضارة، وموقف عمر من مراجعة النبي (صلى الله عليه وسلم) في قضية دعهم يعملوا واضحة، (فعن أبي بكر قال : قال لى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– اخرج فناد في الناس من شهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله وجبت له الجنة فخرجت فلقيني عمر فسألني فأخبرته فقال عمر ارجع إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قل له: دع الناس يعملون فإني أخاف أن يتكلوا عليها فرجعت إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال ما ردك فأخبرته بقول عمر، فقال: صدق عمر، فأمسكت)[1]

علاقة الحرية بالحوار وأثره في الشهود الحضاري

والحوار مظهر من مظاهر الحرية، وسمة من سماتها، كما أنه سبب من أسباب قيام الحضارة على الوعي الذي هو أساس السعي، ولقد حفلت حضارة الإسلام بالحوار في أزهى عصورها، وكان ذلك سببا من أسباب سيادتها وتميزها،والمناظرات الفقهية والنحوية في بلاط الخلفاء والأمراء شأنها معروف ومعلوم، وتميز هذا الحوار بمساحات من الحرية أتاحت حتى لغير المسلمين أن يبنوا تلك الدولة، وأن يؤسسوا بعض نظمها، بل اعتمد بعض خلفاء المسلمين على غير المسلمين فيما تميزوا فيه من تقدم وعلم، (هذا الفقه الحواري الحضاري المفتوح هو الذي ساد الحياة العلمية والثقافية من حيث الردود الفقهية والمناظرات والمناقشات العلمية منذ زمن الخلفاء الراشدين المهديين والصحابة والتابعين لهم بإحسان والقرون الثلاثة المشهود لها بالخيرية ، بين المسلمين بعضهم مع بعض ، وبينهم وبين غيرهم على السواء ، بل بين المسلمين بعضهم مع بعض أولى)[2]...

وكان المجتمع المسلم مزيجا من الثقافات، والمعارف، ويحوي تعددية فكرية وعلمية كانت سببا من أسباب أن يؤمه الناس من بقاع الدنيا؛ لينهلوا من معينه، ويتربوا على أسسه ومناهجه.

حرية التفكير وأثرها في الشهود الحضاري

1 – جامع الأحاديث لجلال الدين السيوطي: (25 / 117)

2 – الحرية ، الفرفور 17.

أولى الإسلام بمصدريه الأساسين: قرآنا وسنة التفكير عناية خاصة، إيماء إلى أن الفكر عماد الحضارات، ومؤسس العمران، وصانع قسمات المستقبل، وأن حضارة تقوم على المادة فقط، حضارة لا تدوم ولا تستقر، فضلا عن أن تثمر وتزدهر، فكثر في القرآن الكريم الدعوة إلى إعمال الفكر، واستثمار العقل، حتى عد الأستاذ العقاد التفكير فريضة إسلامية، ودعا الإسلام إلى النظر والسير في الأرض، واستثارة خيرها، والإفادة من مكنونها، وتعددت صور الحث على ذلك، ومتابعة مادة: فكر،ونظر، وتدبر، وسير، ونحوها في القرآن الكريم تقفنا على مدى عناية القرآن بالفكر ووسائله، لقد وجه القرآن الكريم العقل إلى المجال الخصب في بناء الحضارة، فنهاه عن التيه في عالم الغيب، الذي لا يملك مؤهلات البحث فيه، وفتح أمامه الميدان فسيحا واسعا في عالم الشهادة، ليعمر الأرض باسم الله، وسارت منهجيات القرآن الكريم على ذلك، فكثر فيه الحديث عن عالم الشهادة، بصورة لافتة للنظر، مع عدم إغفال عالم الغيب، كما حرر الإسلام العقل من فلسفات المدنيات السابقة، التي تقوم على إعادة الفكرة دون تجديدها، فتصبح كمن يطحن الماء في إناء، وعلمه كيف يقوم على الرصد والملاحظة، والتتبع والاستقراء والإحصاء، كما حرص على تحرير العقل من الخرافة والتقليد، والتبعية والاستغلال، (وأطلقه من كُبُوْلِه في شتَّى مناحي الحياة الإنسانية، حُراً طليقاً فعّالاً، فالتفكير في الإسلام عبادة، وإني لأَرَى أنَّ كلَّ تنويرٍ أو إصلاحٍ حضاريّ يجب بَعْد أن يقوم أوَّلاً على الدين الصحيح ، وأن ينطلق من الفكر الصحيح، على يد المفكرين من ذوي الفهم والإدراك، فهم حُكَماء الأمة وأئمة الفكر فيها ، وهم المؤتمنون على ماضي الأمة ، وحاضرها ومُستقبلِها ، وأجيالها وحضارتِها ، بَلْهَ على وُجُودِها ، وكلُّ نهضةٍ إصلاحية لا تقوم ولا تنطلق من الفكر العلمي الصحيح لا وُجُودَ لها ، ولئن وُجدت فلا بقاءَ لها). [1]

وحثُ الإسلام الإنسان على الحرية في التفكير والتعبير، أمر طبيعي بدهي؛ لأن مهمة هذا الإنسان أن يكون خليفة عن الله في أرضه، يعمرها باسمه، ويحيها بوحيه، فلم يكبل الإسلام هذا الخليفة بشيء يحول بينه وبين انطلاقة الفكر، وحرية الإبداع بما يضيف للحضارة البشرية إضافات وإضافات.

وعلى هذا النمط من احترام الرأي وحرية الفكر يمضي تاريخنا، فنجد الأئمة أصحاب المذاهب المعروفة وغير المعروفة ينهون عن تقليدهم، أُثر هذا عنهم جميعا بلسان المقال، ولسان الحال، ولقد عقد الإمام ابن القيم فصلا بعنوان: نهي الأئمة عن تقليدهم... وهذه دعوة صريحة للاجتهاد وعدم الوقوف على الرأي المحفوظ عن الأئمة الموروث عنهم، وهل هذا إلا التعدد ؟... وعن هذا المبدأ (الحوار)، (والتعدد) نشأ في تراثنا ما سمي بعلم الخلاف، وهو علم يبحث عن مآخذ الأئمة ومثارات اختلافهم، ومواقع اجتهادهم، وعلم الجدل والمناظرة)[2]

وهذه المساحة من الحرية التي عاشتها الأمة الإسلامية في أزهى عصورها كانت سببا أصيلا من أسباب حضارتها وتميزها، وعاملا من عوامل إفادتها من غيرها، وتلك منهجية القرآن الكريم في بناء الإنسان السوي الصالح، القادر على خلافة الأرض وعمارة الكون والحياة.

---

1 – الحرية الدينية، الفرفور:12.

2 – الحوار والتعددية في الفكر الإسلامي، د عبد العظيم الديب، 25، 26.

لقد (كان طبيعياً لدين أهّل الإنسان لمنزلة الخليفة لله بما وهبة من عقل وإرادة وحرية أن لا يكبل هذه الطاقات، بل المناسب أن يطلقها ويحررها ويجتهد في تحريضها على الحركة والنشاط، مكتفياً بالتوجيه والتسديد، تاركاً له أمر تحديد مصيره، وتحمل مسؤوليته .وبلغ تقدير الإسلام فكر الإنسان وحريته اعتبار التفكير فريضة .كيف لا وقد ناط هذه الوظيفة مهمة التقرير في أخطر القضايا المصيرية، مثل مسألة المعتقد وما يتعلق به من مسالك وأعمال ومصائر؟ ولذلك لا تمل آيات الكتاب تبدأ وتعيد في التحريض على التفكير، وحرية الرأي وترشيد العقل وحمله على عدم اتباع الأوهام، والسير مع عامة الناس، واتباع الآباء والأجداد، وحجزه عن مذهبات العقل مثل المسكرات والمفترات، ومنعه من الخضوع لمختلف ضروب الاستبداد والتسلط ولقد كان لحرية الرأي في الحضارة الإسلامية دور كبير في الارتقاء بهذه الحضارة وازدهارها والدعوة إلى الإسلام والمحافظة عليه ، وأكثر من ذلك كان لحرية الرأي مساهمة عظيمة في وحدة الأمة الإسلامية والنأي بها عن الحروب الدينية وحروب الإبادة والتطهير العرقي كما حصل في حضارات أخرى بسبب التعصب والانغلاق، واحتكار تمثيل المقدس ، والنطق باسمه كما فعلت اليهود والنصارى، على حين اعترف الإسلام بمبدأ التعدد الديني وجعل الاجتهاد متاحا لكل مسلم بقدر علمه.)[1]

علاقة الحرية بالتعددية وأثرها في الشهود الحضاري

وهذه الحرية التي أتاحها الإسلام للإنسان فتحت أمامه مجال الإفادة من الغير واسعا، كما فتحت المجال أمام هذا الغير واسعا كذلك؛ لأنها علمت المسلم أن الحكمة ضالته، أنى وجدها فهو أحق الناس بها، وأتاحت للآخر أن يضيف في هذه الحضارة حسب جهده وطاقته؛ لأنه يعلم أن تلك البلاد بلاده،حتى لو حكمت بغير معتقده هو، كما أتاحت للمسلم أن يفكر بطريقة غير توحدية،فلا يدور حول أفكار نفسه، بل يتعداها ويفيد من غيره فيها، فنشأ داخل الفهم الإسلامي نفسه تعددية محمودة، أثرت الحضارة، وساعدت على نموها وازدهارها،فنشأت مذاهب فكرية إسلامية متعددة في ظل الحضارة الإسلامية، محاطة بسياج الحرية،محمية بالأمان والاطمئنان ما دامت الحجة قبالة الحجة، وليس المدفع ولا البندقية، (وتلك المذاهب اتفقت في الأصول، ولكنها اختلفت في الفروع، نتيجة لما أباحه الإسلام من حرية أدّت بمؤسّسيها وعلمائها إلى أن يجتهدوا في استخراج الأحكام من مداركها، كل بحسب منهجه وظروفه الزمانية والمكانية، لينتهي إلى رأي تنامى ليصبح بمرور الأيام مذهبا قائما يختلف عن مذهب غيره فيما هو من مجال الاجتهاد، فليست المذهبية إذن إلا ثمرة من ثمرات الحرية الدينية كما جاءت في الشريعة الإسلامية.)[2]

لقد اعتبر الإسلام الإنسانية على تباعد أعصارها وترامي أمصارها أسرة واحدة يَفيد اللاحق من السابق، ويمهد السابق للاحق؛ لتتكامل دورات الحضارة الإنسانية على كل حال، فدعا(الإسلام إلى احتكاك الآراء وسعة الاطلاع وتنوع

---

1 – الحريات العامة، د الغنوشي، 48.

2 – الحرية الدينية، للنجار: 16.

الثقافات، واعتبرها إرثاً إنسانياً مشتركاً بين الأمم ، وهذا ما جعل العرب في العصور الإسلامية الزاهرة يَقْبسون من علوم الأمم السالفة والمعاصرة وثقافاتها المتنوعة ما يجدونه نافعاً وصالحاً لبناء أمتهم.)[1]

ومن أشد الدلائل صراحة على قبول قيمة الحرية وعلاقتها بالتعددية وأثر ذلك في الحضارة، إباحة الإسلام للمسلم زواج الكتابية، وحل طعام أهل الكتاب، وبيعهم وشرائهم ومعاملاتهم، بل إشراكهم في بعض مهام الدولة كما عاشت دول وحضارت إسلامية كثيرة هذا المعنى، وحركة الترجمة، وبلاط الأمراء في كثير من حواضر دولة الإسلام يشهد بذلك.

الخاتمة: نسأل الله حسنها

وبعد هذه الرحلة الماتعة في رحاب الكتاب والسنة: جناحي الوحي ومصدري التشريع بان لنا مدى عناية الإسلام قرآنا وسنة بحرية الرأي والعناية بها، وكيف حرص القرآن الكريم على غرسها وبيان قيمتها وأثرها في الشهود الحضاري وتمكن الدول بناء على ما تتيحه لأفرادها من حرية الرأي .

وبان من هذا العرض كيف أن للقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة منهجية واضحة بينة في بيان حرية الرأي وغرسها في نفس الإنسان، كما ظهرت العلاقة بينها وبين الشهود الحضاري للأمة المسلمة،فلقد دعا إلى إعمال العقل وإجالة النظر والحوار وتبنيه في جميع المجالات وكافة القضايا ودعا إلى الشورى واستخدم الأدلة الإقناعية كما اعتنى القرآن الكريم بالتعليل و عني بذكر نماذج قامت حضارتها مؤسسة على حرية الرأي مثل بلقيس وذي القرنين وأظهر أثر ذلك في النهوض والشهود.ويمكننا أن نصل إلى النتائج الآتية:

1. أن القرآن الكريم دعا إلى الحرية عامة وحرية الرأي خاصة
2. أنه رتب عليها قيام الحضارات التي تبقى ؛ بذكره لنماذج عملية منها.
3. أن السنة النبوية المطهرة أتت داعمة ومؤيدة لموقف القرآن الكريم.
4. أن الشعوب يمكن أن تتنفس الحرية وتشارك حاكميها في تحقيق النهوض والشهود وهذا حق كفله الإسلام بمصدريه قرآنا وسنة.

فهرس أهم المصادر والمراجع

- أحكام القرآن،: القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي المالكي (المتوفى: 543هـ)، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلَّق عليه: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثالثة، 1424 هـ - 2003 م - الإتقان في علوم القرآن: (3 / 255).
- الإسلام والاستبداد السياسي، للعلامة الشيخ محمد الغزالي, ط: نهضة مصر ط: السادسة 2005م
- الإسلام والأوضاع الاقتصادية. لأستاذنا العلامة الشيخ محمد الغزالي, ط: نهضة مصر ط: السادسة 2005م.

1 – حرية التعبير، الفرفور، 10. وانظر: الحرية الدينية بشاري، 11.

- إِكمَالُ المعْلِمِ بفَوَائِدِ مُسْلِم، لِلإِمَام الحَافظ أبي الفضل عيَاض بن مُوسَى بن عيَاض اليَحْصَبِي، ت 544 هـ تحْقِيق: الدكتور يحْيَى إِسْمَاعِيل.
- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير: جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية ,الطبعة: الخامسة، 1424هـ/2003م- بحر العلوم (2/ 577).
- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة، لحسني الأنجري الفاسي الصوفي (المتوفى: 1224هـ)، المحقق: أحمد عبد الله القرشي رسلان, الناشر: الدكتور حسن عباس زكي – القاهرة، الطبعة: 1419 هـ.
- التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى 1393هـ), الناشر: الدار التونسية للنشر– تونس, سنة النشر: 1984 هـ
- تفسير ابن أبي حاتم, ابن أبي حاتم الرازي ,مصدر الكتاب : ملفات وورد على ملتقى أهل الحديث.
- تفسير الشعراوي ,الخواطر: محمد متولي الشعراوي (المتوفى: 1418هـ),الناشر: مطابع أخبار اليوم, (ليس على الكتاب الأصل – المطبوع – أي بيانات عن رقم الطبعة أو غيره، غير أن رقم الإيداع يوضح أنه نشر عام 1997م.
- تفسير القرآن الحكيم (المنار), محمد رشيد بن علي رضا (المتوفى: 1354هـ، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- تفسير القرآن العزيز: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن محمد المري، الإلبيري المعروف بابن أبي زَمَنِين المالكي (المتوفى: 399هـ),المحقق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة – محمد بن مصطفى الكنز ,الناشر: الفاروق الحديثة – مصر/ القاهرة ,الطبعة: الأولى، 1423هـ – 2002م
- تفسير الماوردي: النكت والعيون: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: 450هـ),المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم ,الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان.
- تفسير النسفي , أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي, دار النشر : دار النفائس . بيروت 2005, تحقيق الشيخ : مروان محمد الشعار
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: 1376هـ),المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق ,الناشر: مؤسسة الرسالة, الطبعة: الأولى 1420هـ -2000 م.
- جامع البيان في تأويل القرآن: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: 310هـ),المحقق: أحمد محمد شاكر ,الناشر: مؤسسة الرسالة ,الطبعة: الأولى، 1420 هـ – 2000 م
- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري ,المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي ,المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر
- الحريات العامة للأستاذ راشد الغنوشي, بدون

- حرية التعبير عن الرأي, محمد صالح الفرفور: ضمن مؤتمر منظمة المؤتمر الإسلامي, الدورة التاسعة عشر بعنوان: مناهج الحرية في الحضارة الإسلامية.
- الحرية الدينية في الشريعة الإسلامية أبعادها وضوابطها د عبد المجيد النجار, ضمن بحوث مؤتمر منظمة المؤتمر الإسلامي, الدورة التاسعة عشر. - الحرية الدينية: الفرفور:12.
- الحوار والتعددية في الفكر الإسلامي، د عبد العظيم الديب، بدون.
- روح البيان: إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي , المولى أبو الفداء (المتوفى: 1127هـ),الناشر: دار الفكر – بيروت.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني, شهاب الدين محمود بن عبدالله الحسيني الألوسي.
- السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، المؤلف: شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي (المتوفى: 977هـ)، الناشر: مطبعة بولاق (الأميرية) – القاهرة،عام النشر: 1285 هـ
- سنن الترمذي ,المؤلف: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: 279هـ),تحقيق وتعليق: ,أحمد محمد شاكر وآخرين الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر ,الطبعة: الثانية، 1395 هـ - 1975 م.
- صحيح السيرة النبوية، إبراهيم بن محمد العلي، تحقيق همام سعيد،دار النفائس ،1415هـ.
- غَرِيب الحَدِيث، لأبي عبيد الْقَاسِم بن سَلام الْهَرَوِيّ الْمُتَوَفَّ سنة 224 هـ = 838 م، (الْجُزْء الأول) طبع بإعانة وزارة المعارف للحكومة الْعَالِيَة الْهِنْدِيَّة، تَحت مراقبة الدكتور مُحَمَّد عبد المعيد خَان أستاذ آدَاب اللُّغَة الْعَرَبيَّة بالجامعة العثمانية، الطبعة الأولى بمطبعة مجْلِس دَائِرَة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الْهِنْد، سنة 1384 هـ/1964م
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، نحقيق فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة بيروت،1379هـ. ابن حجر: أبو الفضل أحمد بن علي.
- فتح الباري، ط أولى مكتبة الغرباء ،الأثرية،المدينة المنورة،1417هـ، ابن رجب: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد.
- في ظلال القرآن: سيد قطب (المتوفى: 1385هـ), الناشر: دار الشروق -بيروت- القاهرة, الطبعة: السابعة عشر- 1412 هـ
- لباب التأويل في معاني التنزيل: علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن، المعروف بالخازن (المتوفى: 741هـ),المحقق: تصحيح محمد علي شاهين ,الناشر: دار الكتب العلمية–بيروت ,الطبعة: الأولى-1415هـ
- اللباب في علوم الكتاب: أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (المتوفى: 775هـ),المحقق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض ,الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان ,الطبعة: الأولى، 1419 هـ -1998م.

- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: 542هـ),المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد ,الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت ,الطبعة: الأولى1422 هـ.
- مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: محمد بن عمر نووي الجاوي البنتني إقليما، التناري بلدا (المتوفى: 1316هـ),المحقق: محمد أمين الصناوي ,الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت ,الطبعة: الأولى - 1417 هـ.
- مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لمؤلف: أبو الحسن عبيد الله بن محمد عبد السلام بن خان محمد بن أمان الله بن حسام الدين الرحماني المباركفوري (المتوفى: 1414هـ)الناشر: إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء - الجامعة السلفية - بنارس الهند الطبعة: الثالثة - 1404 هـ، 1984 م .
- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: 261هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت-
- مفاتيح الغيب : التفسير الكبير: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: 606هـ),الناشر: دار إحياء التراث العربي بيروت ,الطبعة: الثالثة - 1420 هـ.
- من هنا نعلم، لأستاذنا العلامة الشيخ محمد الغزالي, ط: نهضة مصر, ط أولى, 1997م.
- ميزان الاعتدال في نقد الرجال، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: 748هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، 1382 هـ - 1963 م